

ويقال إن الشيخ إبراهيم الفريد الثاني كان قد استخار قبل أن يعطي المجموعة الشعرية لجدّه ويفوضها إلى البابا(نانك) فظهر له بالاستخارة أن الشعر لن يضيع على يديه وسيصل إلى الأجيال القادمة بأمان وضمان ودون أي عيب ونقصان. ولكننا لانعلم شيئا عن مصير الأصل المكتوب بالخط الفارسي لأن الكتاب السيخي المقدس كان ولا يزال يكتب بخط يسمى خطأ" غور موخيا" وهو خط السيخ ويشبه خط اللغة الهندية لغة الهنادكة! وذلك الخط السيخي لا يوجد فيه أصوات عربية ومن ثم قد حدث تصحيف وتحريف في شعر الشيخ فريد الدين مسعود ولا يزال في حاجة إلى من يعرف الخططين العربي والسيخي فيقوم بتحقيق الديوان. وشعر الشيخ فريد هذا الذي يضمه كتاب السيخ المقدس يحتوي على 112 بيتا ويسمى كل بيت "اشلوك" بالبنجابية القديمة التي كان يتحدث بها الشيخ فريد وهي كلمة سنسكريتية ومعناها الكلام الموزون أو البيت الشعري، وقد عولنا في تعريتنا للديوان على ثلاث طبعات له:

- (1) طبعة الأستاذ مقبول الهي
- (2) طبعة الدكتور نذير أحمد
- (3) طبعة الأستاذ محمد آصف خان.

وهذا الشعر البنجابي للشيخ فريد الدين مسعود هو شعر بنجابي، ويعبر عن عواطف الإنسان البنجابي ومشاعره تعبيرا صادقا كما أنه يعبر عن عواطف كل انسان ومشاعره تعبيرا صحيحا، فالواقع أن الشيخ يمثل الثقافة البنجابية تمثيلا بمعنى الكلمة، لأن الإنسان البنجابي بالأمس واليوم

إنسان رجب الصدر واسع القلب حلو اللسان سليم الذوق صادق اللهجة ليس في حديثه العام وكلامه العادي فحسب بل فيما يفعله عمليا ويقوم به من الترحيب الحار لكل مسافر زائر وضيف طارق ويؤثر غيره على نفسه في كل ما لديه ويملكه أو يقدر عليه من القيام بالخدمة وتقديم الضيافة والحفاوة بضيفه من أعماق صدره وبقلبه الصادق الذي يتدفق حبا وإخلاصا فكان الشيخ فريد الدين مسعود، رحمه الله، في شعره وفكره يجمع بين ما ورثه من التقاليد الثقافية والحضارية البنجابية منذ القدم وبين ما جاء له بحكم إيمانه بالله وحده وعقيدته الإسلامية السمحاء التي تقوم على التوحيد والوحدة البشرية والمساواة الشاملة والأخوة الصادقة من مبادئ دين الله الحنيف ومن التقاليد الثقافية العربية الفاضلة التي ورثتها رسالة التوحيد والأخوة والمساواة من نوح وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام إلى محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فشعر فريد هذا، إذن، إنما هو شعر يعبر تعبيرا صحيحا عن تعاليم الإسلام والثقافة العربية القديمة كما أنه يعبر تعبيرا صادقا عن الثقافة البنجابية المتدفقة حبا وإخلاصا للبشرية كلها دون تفرقة عنصرية أو تمييز عقائدي، إذ هي ثقافة تتدفق بالمشاعر الإنسانية الجميلة كما تجري وتتدفق الأنهار الخمسة التي تسقي وتروي الأراضي القاحلة الميتة فتحيتها فتحولها إلى حقول خصبة خضراء كثيرة المنافع والخيرات في إقليم بنجاب!

ومهما كان أصل الشيخ فريد أو أرومته التي كان ينتمي إليها، أعربيا كان أصله أم عجميا، فذلك مما لا يهم بهذه المناسبة، وإنما المهم هو

أنه قال الشعر باللغة البنجابية التي تعلمها من أمه والتي كان يتحدث بها هو وكل من كان يعاصره من الناس، المسلمين وغيرهم في المنطقة ، الذين عاش بينهم فريد فتأثر بهم و أثر فيهم، وهذا الشعر البنجابي الذي قاله الشيخ في تلك اللغة البنجابية المغربية أو اللهجة الملتانية ، يمتاز بأسلوبه الخاص، فرغم أنه كان من أسرة قد تحدرت من هراة في أفغانستان إلى ملتان في إقليم بنجاب ولم يكن قد مضى وقت طويل على نزوح الأسرة إلى الهند و مغادرتها بلاد اللغتين العربية و الفارسية، إلا أن شعره البنجابي القح يحمل طابعا محليا خاصا، وقلما تجد فيه أثرا لغويا أو أدبيا من العربية أو الفارسية غير الفكر الإسلامي العريق، إنما هو شعر بنجابي قح بمعنى الكلمة ، وذلك إن دل على شئ فإنما يدل على أن الشيخ ، رحمه الله ، قد كان من هؤلاء الصوفية المسلمين الأبرار الذين لم يكن يهمهم غير نشر الفكر الديني الإسلامي بين الناس و دعوتهم إليه في لغتهم الأصلية المتداولة فيما بينهم لكي يتمكنوا من فهم الإسلام فهما مباشرا جيدا صحيحا فيهتدي إليه من شاء أو من أراد به الله خيرا فيهديه إلى دينه، فذلك قد كان دأب الصوفية المسلمين وهمهم في شبه القارة، ولقد كان عباد الله هؤلاء يجلسون في مجالسهم العامة و في حلقاتهم المفتوحة فيأتي إليها كل من هب ودب دون تمييز أو تفرقة فيستمعون إلى حديثهم ، الذي كان سهل الفهم قريب المنال شيقا جذابا مرغوبا فيه، فينتفعون به ويستفيدون منه، وكان حديثهم هذا الممتع المفيد يتخلله ذلك الشعر الصوفي الممتع الفعال فيؤثر في نفوسهم و يجذبهم إلى الإسلام فيدخلون في دين الله عزوجل عن

رغبتهم فيه وحبهم له! ومن ثم قد جاء شعر هؤلاء الصوفية الأخيار تعبيراً صادقا عن المجتمع الذي عاشوا فيه، و تصويراً رائعاً صحيحاً للبيئة التي أنشروا فيها كما أنه ، في نفس الوقت ، يعبر عن الفكر الإسلامي ويصور جهود الصوفية في دعوة الإسلام و تبليغه إلى الناس في شبه القارة، و أن الجموع المتكاثرة من السكان المسلمين في هذه البلاد قد اعتنقت الإسلام و دخلت فيه نتيجة لجهود هؤلاء الصوفية الدعاة وهم أصحاب الفضل في ذلك جزاهم الله خيراً عن المسلمين جميعاً!

و أما اللغة أو اللهجة البنجابية ، التي اتخذها الشيخ أداة لشعره و التي كان يتحدث بها في أسرته و أهله و اختارها للتعبير بها، فهي لغة ملتان البنجابية أو اللهجة الغربية البنجابية عند اللغويين والألسنيين القدماء ، وهي التي كانت ولا تزال أداة للتعبير الشفوي ولغة التخاطب عند أهل ملتان و ما إليها من المناطق (وهي اللهجة السرائيكية عند المحدثين اليوم!) وهي مناطق واسعة وطويلة جدا وتقع على ضفتي نهر السند و تمتد من منابعه في المناطق الجبلية الشمالية إلى مصبه في بحر العرب حيث كان الإنسان في القدم يحب أن ينزل على سواحل النهر ويبنى بها المدن والقرى لكي يتمكن من الحصول على الماء للشرب والسفر فيه بالسفن والقوارب، والذين نزلوا بهذه المدن والقرى و عمروها وسكنوا بها، قد كانوا من أصول شتى و أجناس مختلفة من البشر، وكان آخرهم الفرس واليونان ثم العرب والأتراك والمغول، وجميعهم قد تحدثوا بتلك اللهجة البنجابية ، التي عرفت باللهجة الغربية وتعرف باللهجة السرائيكية اليوم،

وقد أثر فيها هؤلاء جميعهم و تأثروا بها خلال القرون الطويلة! فتلك هي اللغة أو اللهجة البنجابية التي تعلمها الشيخ من أمه الحنون وتحدث بها و قرض بها الشعر حين استقر أخيراً على ظهر قرية "أجودهن" أو "باك بتن" (أي المورد الطاهر) اليوم حيث قضى الشيخ فريد الدين مسعود ما تبقى من عمره و بها مات وبها مدفنه و ضريحه ، وهذه اللهجة البنجابية ، التي قال بها الشيخ شعره هي تمتاز بمفرداتها البنجابية القديمة و يوجد بها القليل من المفردات العربية و الفارسية ، وهي قرية من اللغة السندية وتشبهها في كثير من الأشياء.

واللغة البنجابية ، بصفتها إحدى اللغات القديمة في شبه القارة، لغة أدبية عريقة، وحتى يرى البعض بأنها هي أقدم من اللغة السينسكريتية ، وقد تكون أقدم من اللغة الدراورية التي كانت سائرة متداولة قبل أن يجيء الآريون إلى شبه القارة، إذ هي لغة الجنس البشرى الدراورى ، وهم السكان الأصليون لبلاد شبه القارة، فالبنجابية ، إذن، قد تكون أقدم لغة نطق بها الإنسان في شبه القارة ، ومن أبرز ميزاتها أنها لغة بسيطة سهلة و تمتاز بالأساليب البلاغية البسيطة السهلة على عقول العامة والخاصة في نفس الوقت ، إنهم يفهمون ما يلقي بها عليهم من الخطب وما قيل فيها من الشعر دون أية صعوبة و مشقة وعناء ، مهما بلغ الشعر القمة من المحاسن الأدبية والإناقات اللغوية والأساليب البلاغية ، وذلك مما يحفل به الشعر الصوفي البنجابي عبر العصور ، وشعر الشيخ فريد الدين مسعود دليل على

تلك الدعوى ، وهو خير مثال قلدة الشعراء المتصوفون في عصره وفيما بعده من العصور.

ومن المحاسن الأدبية والإنافات البديعية التي يمتاز بها شعر اللغة البنجابية هي الكثرة المفرطة من الكنايات والاستعارات المتنوعة ومثال ذلك المصباح الذي يكنى به مرة بالعين و أخرى بالروح في اللغة البنجابية فإن العين تضى و تهدي الطريق كما ينير المصباح البيت فإذا فارقت الروح الجسد، و قضى عليه بالموت، انطفأت العين كما ينطفئ المصباح فيسود الظلام البيت، ومثال ذلك بيت شعري أو أشلوك لرائد الشعر البنجابي و إمامه الشيخ فريد الدين مسعود الذي يقول:

فريدا دوهين ديوي بلديان ملك بيتها آ

كره ليتا كهت ليتا ديوري كيا بجها

و معناه: "أما رأيت يا فريد! أن الإنسان عند ما كان حيا كان مصباحا يشتعلاق ويضيئان أي كانت عيناه تلمعان، فجاء ملك الموت فحشم على الإنسان الحى ففتح قلعته أي جسده و نهب البيت أو قبض الروح و أطفأ المصباحين أي العينين!! "

فالبيت الشعري هذا للشيخ ملئ حافل بالكنايات والاستعارات يفهمها كل بنجابي بمجرد الاستماع إليه ، وتلك هي ميزة اللغة البنجابية التي قد انتقلت إلى آدابها شعرا و نثرا! و في البيت من المعاني والأفكار لا يطلع عليها إلا من تعلم البنجابية و عرف تقاليدها و أعرفها و أدرك ميزاتهما الأدبية، فالانتصار النهائي على الجسد أو فتح قلعته إنما هو إنذار

للجبابرة العنداء الذين يعتقدون بأنهم خالدون، و أن لهم حصونهم المنيعه وقلاعهم المشيدة سوف تدافع عنهم و تقيهم من الأعداء المغيرين و مهالك الموت وغوائله، فهكذا كان الصوفية المسلمون يعطون الطغاة من الملوك و يندرون الجبابرة من الأباطرة سوء العقابة لمن يظلم الناس منهم، ومن غضب الله و عقابه لمن ادعى العظمة والكبرياء ، وتأنك الصفتان قد استأثر بهما الله و خصهما لنفسه كما نص عليه الحديث القدسي:

" يقول الله عزوجل: العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي!"

وللشيخ فريد بيت بسيط ولكنه حافل بالكنائيات حيث يقول:

فريدا روتي ميري كاته دى لاهوى ميري بهكه
جنهان كهاديان جوبريان كهني سه نكي دكه!

و معناه: "إن خبزي الذي أعيش عليه يا فريد! هو من الأخشاب أي من ثمرات الأشجار وقشورها فهو طعام يغنيني من الجوع، وأما الذين يأكلون الأطعمة السمنية الدسمة، سوف يحزنون ويكابدون الألم ويندمون في النهاية".

فهذا البيت الشعري للشيخ فريد الدين مسعود يحكى لنا قصة كما أنه يحفل بالمحاسن الأدبية والروائع الفنية في الوقت نفسه، فأما القصة فهي أن الشيخ، رحمه الله، عندما نزل بظاهر القرية "أجودهن" لم يرد أن يكون عبئا على أحد أو يشحذ الأخباز على الطريقة التي يختارها الصوفية الفقراء وإنما قرر أن يعيش على ثمرات شجر الكرير الذي كان متوفرا في المكان

كما أن الشيخ كان قد نزل تحت أكبر شجر من بينها واتخذ منزلاً له وأخذ يعيش على ثمره وقشره وورقه وخشبه! وقد صرح به المترجمون له وقد استمرت حياته على ذلك المنوال مدة حتى تمكن من بناء الأكواخ له ولأهله! وحتى بدأت "الفتوحات" تأتيه من كل ناحية وصوب، وأما المحاسن الأدبية والروائع الفنية فقد كني الشاعر في بيته هذا بالخبز الخشي عن ثمرات الأشجار وقشورها وأوراقها التي عاش عليها مدة من الزمان والتي يعيش عليها الزهاد والنسك الهائمون المتجولون في البوادي و الصحارى دائماً يبحثون عن بغيتهم و يتجنبون الناس ويتعدون عنهم! ولم يعرف عن الشيخ أنه اتبع هؤلاء المغامرين، ولكنه قد عاش على ثمر الشجر الذي جلس تحته و اتخذ منزلاً كما استفاد و تمتع من ثمرات غيره من الأشجار الأخرى التي كانت حوله في الأجمة.

ومن نوادر التشبيه عند الشيخ قوله الذي يشبه فيه الصوفي الصابر الحليم بالشجر المثمر الذي يتحمل ضربات الحجارة والعصي من قبل من يجني ثماره ولكنه لا يمنع من ثمره بل هو يؤتي لهم ثماره و ينفعهم دون منع أو انقطاع ، يقول:

فريدا صاحب دي كر جا كرى دل جى لاه بهراند

درويشان نون لوري ركهان دي جيراند

ومعناه: "كن يافريد! عبد الربك وحده ولا تعبد سواه أحدا! وبه تستطيع أن تعزى قلبك و تطمئننه! و تذكر دائماً ولا تنس أبداً إن الدراويش المتصوفين في حاجة إلى صبر وحلم قد امتازت به

الأشجار المثمرة التي يأتي جناة ثمارها فيكيلون لها ضربات الحجر و
العصا ولكنها لا تمنعهم ثمارها و تتحمل أذاهم دون شكوى!".

وللصوفية طرق يتعزون بها و يلقنون الناس العزاء على أساسها،
فمن ذلك أن الذي يشترك فيه جميع البشر هو الحزن والألم ، لن تجد إنسانا
لا يحزن ولا يجد الألم والحن فذلك هو القاسم المشترك بين الناس جميعا،
وفيه يقول الشيخ ، رحمه الله: ما معناه: " قد ظننت أنا يا فريد: كأني
حزين وحدي ولكن ظني كان كاذبا!

فالحزن قاسم مشترك بين البشر ويعم العالم كله! فقد صعدت إلى
مكان مرتفع فألقيت نظرة من على المكان المرتفع فرأيت أن نار الحزن قد
شملت بيوت العالم كله وتحرق كل بيت!"
وفي هذا المعنى يقول شاعر عربي، والله دره:

كل من ألقاه يشكو للزمن ليت شعري هذه الدنيا لمن؟!

ومن روائع الفكر وبدائع القول عند الشيخ فريد الدين مسعود، رحمه الله،
قوله في حب الزهاد لله ومشكلتهم في الوصول إلى حضرته جل جلاله:

فريدا كليين جكر، دور كهر، نال بياري نينه

جي جلان تي بهجي كمبلي، جي رهان تي تي نينه

ومعناه: "يا فريدا! الأزقة كلها وحلة ملساء، والمنزل بعيد جدا، وصلة
الحب بالحبيب تجري إليه، ولكنني إذا مشيت ابتل دثاري واتسخ، وإذا لم
أتقدم نحو الحبيب انقطعت صلة الحب به!!"

ونكتفي بهذا القدر من الروائع الفنية للشيخ فريد فهي كثيرة متنوعة ونترك المجال للقارئ العربي الذي أردنا أن نمتعه بهذه الترجمة العربية ونضيف بها شيئاً، ولو كان ضئيلاً حقيراً، إلى إثراء اللغة العربية، فجملة القول إن الشيخ فريد الدين مسعود، رحمه الله، قد كان عالماً متديناً قد أتقن العربية وعلومها ثم كرس حياته كلها للدعوة إلى الله وإصلاح النفوس وبناء المجتمع وأنه كان شاعراً متصوفاً ومؤمناً موحداً لا يري في الكون قوة غير الله الحق الذي جبلت القلوب على حبه وسكنت إلى رحمته واطمأنت بذكره ووجدت الراحة في السبيل إليه - مهما كان صعباً وعراشاً! - وحنّت إلى حضرته شوقاً وفرحاً وسروراً! وكان ذلك مما جعل الشيخ لا يحفل بالدنيا وأهلها وزخارفها وكان يكرهها أشد الكره فلم يلتفت إلى ما فيها أو إلى ما في أيدي أهلها، ورأي أن ذلك كله إنما هو متاع الغرور، فاعتزم على أن يفر منها فرار الخائف من نار الحريق أو العائد بالله من الغريق! رحمه الله رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه.

أ.د. ظهور أحمد أظهر

لاهور في 2003/7م

تعريب الأبيات الشعرية

(1)

- يوم تمت خطبة العروس ففي نفس اليوم تم تحديد عقد قرائنها، فإذا ملك الموت الذي كنا نسمع به ، قد طلع وكأنه يقدم العروس للعريس كهدية الزواج (يقول إن الحياة قصيرة والموت حق وليس بين المولد والموت مهلة إلا كما يكون بين الخطبة ثم عقدة النكاح وتقدم العروس للعريس كهدية!)
- إن ملك الموت سوف يأتي فينزع الروح البائسة من البدن حتى وكأنه يمزق العظام ، فالأنفاس معدودة مكتوبة ، ولا تطول ، ولكن من الذي ينصح الروح البائسة ويقعها؟! (لحظة النزع صعبة رهيبة، وهي آتية البتة ، وعلى الإنسان أن يتعظ بذلك!)
- فالروح عروس والموت عريس يتزوج العروس ، فيذهب بها ويودعها الأقارب أنفسهم وهم يتباكون متعانقين بعضهم البعض (مشهد من المشاهد عند توديع الميت).
- إن الصراط إلى الخلود أدق من الشعرة وسرعة العبور عليه ستكون أسرع من الصوت! فهل تسمع يا فريد بالهاتف الداعي الذي يناديك قائلاً : لا تقف غافلاً حائراً مندهشاً! (لا تضيع العمر و استعد لعبور الصراط إلى الجنة بالعمل الصالح!).

(2)

- (يتحدث عن طريق الفقر الصوفي الوعر الصعب ويرى أن طريق أهل الدنيا أسهل منه بكثير، فيقول): إن باب الفقر صعب عسير، وأريد أن أختار طريق أهل الدنيا حيث يستطيع المسافر أن يشد رزمته ويحملها معه ثم يضعها حيث يشاء دون حذر أو تردد!

(3)

- إن الدنيا، بزخرفتها الالامعة وأغطيبتها الكثيفة، نار حامية، ولا يمكن لي أن أدرك حقيقتها و أميز بين خيرها وشرها ولكن الله جل جلاله كان بي رحيمًا وإلا فقد كنت على وشك السقوط فيها، والاحتراق بحرها اللاذع !

(4)

- (هنا يتحدث الشيخ عن أيام الحياة الدنيا القليلة التي تنقضي بسرعة ويشبهاها بحبوب سمسمية، ويتحدث عن ربه الصمد الغني الذي يتلى عباده دون أن يبالي بهم في بلائهم فيقول): لو كنت أعرف أن الحبوب السمسمية قليلة العدد لمألت بها كفى جيداً، ولو كنت على علم بأن ربي غني صمد لا يبالي بمن يتلوه من عباده لما افتخرت به كثيراً، ولكنني كنت خائفاً مترقباً فيما أعمل ولم أتدلل معه أبداً !

(5)

- لو عرفت أن الحبل مرخي مهلهل لشددت العقدة، وقد سرت في أرضك الرحبة كلها يارب! فلم أجد أحدا يباريك في الكبرياء وينازعك في العظمة! (يفقد العبد صلته بربه إذا كانت ضعيفة واهية، فهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شئ في العظمة والكبرياء!)

(6)

- (يريد الشيخ فريد الدين مسعود أن ينصح لنا مخاطبا نفسه فيقول): إذا كنت، أنت يا فريد، ذا عقل لطيف سليم فعليك أن تجتنب الذنوب والآثام، وعليك بالتواضع وخشية الله، وذلك بمعرفتك نفسك وباستشارتك قلبك وضميرك!

(7)

- (من نصائح الشيخ ومواعظه لأتباعه أنه يأمرهم بالعفو والصفح والصبر والحلم، عاملا بقوله سبحانه وتعالى: ولمن صبر و غفر فإن ذلك لمن عزم الأمور، وقوله تعالى: فاعفوا واصفحوا، فيقول): إن لطموك يا فريد! فلا تلطمهم وعليك أن تعود إلى منزلك أي أعرض عنهم إعرضا وتنح إلى ناحية فسوف ترى الناس قد تراجعوا عن الإساءة إليك!

64

(8)

- (الإنسان الغافل يضيع الفرص المتاحة ثم يندم على ذلك في النهاية! وعن ذلك يقول الشيخ فريد:) عند ما كانت فرص العمل متاحة شاركت الناس في اللهو واللعب يا فريد! وحين اقترب وقت الرحيل بدأت الرجوع إلى الله وأردت أن ترضيه وتتقرب إليه! فيا للخسارة والفضيحة!

(9)

- (الشيخ ينبه الغافل الذي يضيع العمر فلا يحفل بما يحتاج إليه في عقباه فيقول): أنظر إلى ما قضيت من عمرك يا فريد! فقد ابيض شعرك وأنت على وشك الرحيل! فقدم لعدك وما تحتاج إليه في عقباك، أفلا تري أن الذي قضيت من العمر قد ابتعد عنك ابتعادا و اقتربت ساعتك اقترابا!؟

(10)

- (الشيخوخة تتبع الشباب فيتحول سم العواطف الجياشة إلى سكر الهدوء، ولكن من لآلام الوهن والضعف!؟ يقول الشيخ فريد الدين مسعود في بيته الشعري البنجابي هذا): انظر يا فريد! فقد انقضى شبابك فتحول من العاطفة الثورية إلى سكر السكينة والهدوء ، و لكن ليس من تشكو إليه وتستعين به في آلام الشيخوخة وضعفها و وهنها، غير ربك الرحيم الكريم!